المحاضرة الثانية: مفهوم لسانيات النص: من لسانيات الجملة إلى لسانيات النّص/من كتاب نحو النص (أحمد عفيفي).

تتنوع فوائد "نحو النص" وتتداخل مع أسباب الحاجة إليه، بعد أن أصبحت تلك الحاجة ملحّة لتغيُّر كثير من المفاهيم النقدية الحديثة. وتغير النظرة اللسانية إلى مفهوم اللغة ووظيفتها عند تحليل الخطاب. وفيما يلي سوف نتكلم عن ذلك بإيجاز:

أولاً: من الواضح أن "نحو النص" قد ارتبط ارتباطا وثيقا بتحليل الخطاب ووجود مذاهب نقدية جديدة تركز على النص كبنية كلية. لا على الجمل باعتبارها بنى فرعية، وعلى هذا اجتذبت النصوص علم النحو بناء على وجود تلك المذاهب باتجاهاتها النصية. حيث صنع ذلك تطورا واضحا من نحو الجملة إلى نحو النص الذي يشمل النص. وسياقه، وظروفه، وفضاءاته، ومعانيه المتعالقة القبلية والبعدية. مراعيا ظروف المتلقي وثقافته وأشياء أخرى كثيرة تحيط بالنص. إنه باختصار شديد: الأكثر اتصالا بمجال تحليل النص.[٦١] أما ما كان يحدث في المناهج التراثية، فيذهب الدكتور تمام حسان إلى[٦٢] أنه كان تناولا للنص بالشرح؛ فلم يكن ينظر إلى مجمل النص والتماس فهمه بوصفه ذا وحدة عضوية تجعل بعضه يفسر بعضا، ـ عدا ما كان يحدث عند بعض المفسرين ـ وإنما كان الشراح يبنون شروحهم على المفردات فترى الواحد منهم يعرض للفظ المفرد ثم يغوص في الدلالة المفردة لهذا اللفظ. مع ندرة الانتباه إلى العلاقات العضوية بين أجزاء النص. وما كان لهذا المنهج في شرح النصوص أن يؤدي إلى الفهم الكامل لدلالتها ومقاصدها.

---

(٦١) محمد مفتاح: دينامية النص ص٣٠.

(٦٢) مقدمة كتاب "النص والخطاب والإجراء ص٤.

ولعل هذا الفهم كما يشير الدكتور تمام يصدق حتى على عمل المفسرين وشرحهم للنص القرآني، مع أن بعضهم أدرك ضرورة وجود هذه العلاقات التماسكية ، وأن القرآن يفسر بعضه بعضا،وأن السنة تفصّل ما في القرآن من إجمال.

وحينما ظهرت تلك المذاهب النقدية الحديثة في أوروبا وأمريكا اتكأ النقد على اللسانيين. فظهرت تلك العلاقة الوثيقة التى ربطت بين اللسانيات والدرس الأدبي منذ ثلاثة عقود في أوروبا وانتقلت أصداؤها إلى الدراسات العربية منذ زمن ليس بالبعيد، مما جعل اللغويين يتمردون على الجملة باعتبار أن الوقوف أمامها يمثل تحليلا جزئيا بعيدا عن كلية النص. هذا النص الذى لم يعد تتابعا مسلسلا من الجمل. ولكنه مبنى فريد قائم برأسه. وقد أكد بايك هذه الدلالات وأوجب أن يتسع مفهوم النحو ليصبح مكونا من مكونات نظرية شاملة تفسر السلوك الإنساني.[٦٣]

وقد تنبه بايك إلى تقلص دور اللسانيين في دراسة النص وأراد لهم أن يمتلكوا زمام الموقف،فأنكر عليهم انصرافهم عن دراسة النص الأدبي لصالح نقاد الأدب. مع ما للمعالجة اللسانية من أهمية خاصة في تقديم الأساس الموضوعي للأحكام النقدية.[٦٤]فأصبح للنحو دور كبير في تفسير النص من خلال تلك النظرة الشاملة والمنهج المتكامل للنص،الذي كان من نتائجه ظهور دراسات لغوية نصية تتناول تركيب

---

(٦٣) د. سعد مصلوح . من نحو الجملة إلى نحو النص ص٤١١ .

(٦٤) السابق نفسه .

النص.[٦٥] ولهذا لجأ اللغويون إلى نحو النص باعتباره بديلا موضوعيا لنحو الجملة.

ثانياً: كثير من الظواهر التركيبية لم تفسر في إطار الجملة تفسيرا كافيا مقنعا. وربما تغير الحال إذا اتجه الوصف إلى الحكم على هذه الظواهر في إطار وحدة أكبر من الجملة، ويمكن أن تكون هذه الوحدة هي النص.[٦٦] من هنا فإن نحو النص يهتم في تحليلاته بضم عناصر جديدة لم تكن موجودة في نحو الجملة، إنه يذهب في تحليله إلى قواعد جديدة منطقية ودلالية وتركيبية ليقدم شكلا جديدا من أشكال التحليل لبنية النص، وتصور معايير التماسك والترابط والانسجام ولهذا تضافرت تقريرات اللسانيين من أمثال بايك وهارتمان وجليسون وساندرز ولونجاكر وفان دايك وغيرهم على أن نحو النص بالنسبة لأي لغة بعينها هو أكثر شمولا وتماسكا واقتصادا من النحو المصوّر في حدود الجملة.[٦٧] ومن هنا تغيرت الأهداف وتحددت أهداف كبرى جديدة نصية حيث عُني علم اللغة النصى في دراسته لنحو النص بظواهر تركيبية نصية مختلفة، منها كما يقول سوينسكي **sowinski** علاقات التماسك النحوي النصي وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف، والجمل المفسرة، والتحويل إلى الضمير، والتنويعات التركيبية وتوزيعاتها في نصوص فردية، وغيرها

---

(٦٥) برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية ١٩١ وانظر: الأزهر الزناد: نسيج النص ص١٦، ١٧ود. سعيد بحيري:علم لغة النص ص١٠٦، ١٠٧ .

(٦٦) د. سعيد بحيري: السابق ص١٣٤ .

(٦٧) د. سعد مصلوح: من نحو الجملة إلى نحو النص ص٤١٥ .

من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة التي لا يمكن تفسيرها تفسيرا كاملا دقيقا إلا من خلال وحدة النص الكلية.[٦٨] ومن هنا نقول: إن تغير مهمة النحو الذي يتجه إلى النص قد غير أهدافه بتعديلها، أو بوجود أهداف جديدة لم تكن موجودة في نحو الجملة فالتحليل النحوي اتجه إلى النص وبالتالي جاء تغيُّر المنهج والأهداف عاملا أساسيا لضرورة الحاجة إلى نحو النص.

ثالثاً: تغير الدرس اللساني في نظرته إلى اللغة. وذلك للإحساس الطاغي بالوظيفة الاجتماعية للغة، وإلى ضرورة وجود الدور التواصلي الذي يعده علماء اللسانيات جوهر العمليات الاجتماعية،ومن هنا ــ كما يقول الدكتور سعد مصلوح ــ "أدرك علماء اللسان أن اجتزاء الجمل يحيل اللغة الحية فتاتا وتفاريق من الجمل المصنوعة المجففة أو المجمدة"[٦٩]، وذلك إشارة إلى شواهد النحو والبلاغة التي تأتي غالبا مصنوعة، أو منزوعة من سياقها، مما يتنافى ونحو النص .

تلك الوظيفة الاجتماعية، وهذا الدور التواصلي للغة يفسحان الطريق للنحو أن يتسع مفهومه، كما يشير بايك منذ قليل، ليصبح مكونا من مكونات نظرية شاملة، تفسر السلوك الإنساني، وهذا لا يتم إلا من خلال نص مرتبط بسياق تواصلي وليس من خلال جملة.

---

(٦٨) مقولة Sowinski نقلا عن د. محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي ص٣٣ .

(٦٩) د. سعد مصلوح: من نحو الجملة إلى نحو النص ٤١٠ .

رابعاً: إضافة مهام جديدة للنحو ليست من اختصاص نحو الجملة ولكنها ضمن مهام نحو النص، ومن تلك المهام كما يشير فان دايك "صياغة قواعد تمكننا من حصر كل النصوص النحوية في لغة ما بوضوح ، ومن تزويدنا بوصف للأبنية؛ فنحو النص إعادة بناء شكلية للكفاءة اللغوية الخاصة بمستخدم اللغة في عدد لا نهائي من النصوص" (٧٠) .

خامساً: الإفادة من نحو النص في خدمة الترجمة من لغة إلى لغة أخرى، حيث يرى روبرت دي بوجراند أنه يمكن للسانيات النص أن تقدم إسهاما لدراسات الترجمة، بعكس اللسانيات التقليدية التى تعنى بالنظم الافتراضية،لأن الترجمة من أمور الأداء،وليس امتلاك النحو والمعجم فقط كافيا للقيام بالترجمة؛بسبب الحاجة إلى الترابط في استعمالات اللغة،وذلك من المهام الأساسية لنحو النص.لذا يمكن أن يفيد كثيرا في هذا المجال في النقل من اللغات الأجنبية إلى العربية أو العكس.

سادساً: نستطيع من خلال نحو النص أن نعيد النظر في بعض المفاهيم اللغوية التقليدية السائدة، وذلك إما لتعميقها أو لتعديلها. وسأعطي مثالين على ذلك:

أ ــ يشير النقاد إلى افتقار قصيدة العصر الجاهلي إلى الوحدة العضوية؛ وذلك لتعدد الأغراض في القصيدة الواحدة. ولكن يمكن من خلال نحو النص إعادة دراسة القصيدة في العصر الجاهلي من خلال

---

(٧٠) نقلا عن د. سعيد بحيري: علم لغة النص ص١٣٥ ، ١٣٦ .

وسائل التماسك، وذلك لإيجاد هذا الترابط المفهومي الملحوظ أو حتى بعض وسائل الربط الرصفي الذي ينتج عنه القول بوجود وحدة عضوية كاملة. وقد قدم الدكتور سعد مصلوح نموذجا لتلك الدراسة حول قصيدة المرقش الأصغر (بنت عجلان)، وقد استطاع أن يلمس " مدى إحكام النسيج في التشكيل اللغوي للنص،وصلة ما بين ظاهر النص وعالم النص"[٧١] واستطاع أن يكشف بواسطة السبك Cohesion والحبك Coherence عن ثراء النص والقدرة الكافية والفعالة فيما هو نتاج إبداعي.

ب ـ النظر في مفهوم التضمين[٧٢] بوصفه عيبا من عيوب القافية فقد عابه العروضيون مع أنه ارتباط دلالي (رصف أو مفهوم) مباشر، وهو تعالق نحوي بين بيتين. فالبيت الأول يحتاج البيت الثاني في قول الشاعر:

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وعدّ العروضيون والبلاغيّون القدامى ذلك قبحا "وأن مثل هذا الارتباط من العيوب التي يجب على الشاعر تفاديها"[٧٣]

---

(٧١) د. سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري ص١٦٥ وانظر الدراسة كاملة في مجلة فصول يوليو ١٩٩١،أغسطس ١٩٩١ المجلد العاشر من ص١٥١ إلى ص ١٦٦ .

(٧٢) التضمين عند العروضيين " تعليق قافية البيت الأول بالبيت الثاني" انظر الخطيب التبريزي. الكافي في العروض والقوافي – الخانجي ١٩٧٧ ص١٦٦.

(٧٣) د. صلاح فضل بلاغة الخطاب ص٢٦٤ .

وإذا أعملنا نظر نحو النص في هذا الأمر نجد ترابطا واضحا وتماسكا دلاليا قائما بين البيتين، يقول الدكتور صلاح فضل : " ومن الواضح ان الصورة الشيقة في هذه الأبيات الغزلية العذبة لم تشفع للشاعر عند البلاغي المعياري الصارم الذي يرى في البيت وحدة نحوية لا ينبغي أن تظل مفتوحة بأي شكل على البيت المجاور لها "[٧٤] ومن هنا تدخل الرؤية الواضحة لنحو النص لتحسم الموقف مؤكدة أن هذا الترابط ليس عيبا بما فيه من انسجام وتلاحم رصفي ومفهومي.وهكذا نستطيع ان نغير رؤيتنا حول بعض المفاهيم من خلال نحو النص.

---

(٧٤) السابق ٢٦٥ .